إجتهاد فى تفسير آيتَىْ (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

و (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)

محمد سعد زغلول سالم

السبت ١٦ مايو ٢٠٢٠

تثير هاتان الآيتان الكريمتان الكثير من الجدل بسبب ما يبدو من تعارضهما الظاهرى وبسبب إتفاق نظرية الإنفجار الكبير التى وضعت نموذجاً فيزيائياً وفلكياً لكيفية بدء النظام الكونى فى التكوين مع مفهوم أحد معانى الآية الثانية التى تشير إلى فصل السماوات عن الأرض بعدما كانتا موصولتين ببعضهما البعض. وقد درج المفسرون على تفسير الآية الأولى بخلق الله للسماء ولكنهم سكتوا عن تفسير معنى توسيعها حيث لم تكن الأرصاد الفلكية الحديثة التى تكشف عن توسع الكون قد تم معرفتها. كما درجوا على التفسير المباشر للآية الثانية بأنها تعنى رفعَ السماء عن الأرض بعدما كانتا ملتصقتيْن وتميزهما بعد ذلك إلى أرض وسماء وفسروا بقية الآية الكريمة بمعناها المباشر الذى يكشف عن خلق كل شيء من الماء.

والتدبر فى معانى هاتين الآيتين الكريمتيْن يكشف عن جوانب عديدة قد تفيد فى توضيح الصلات بين معانيهما. فإستخدام كلمة (سماء) فى الآية الأولى وليس كلمة (سماوات) يفرضه معنى الآية الذى يشير إلى خلق (السماء) وليس إلى خلق (سماوات متعددة) وهو ما يتفق مع تفسير كلمة (سماء) فى هذا الموضع بأنه (الكون) الذى يتم توسعه بإستمرار مثلما يشير تعبير (وإنا لموسعون). وإستخدام كلمة (سماوات) وليس كلمة (سماء) فى الآية الثانية يكشف عن حقيقة بعض الظواهر الفيزيائية التى تتعرض لها هذه الآية التى تختص بتفسير ما حدث بعد تكون الأرض حيث لم يكن لها فى تلك البداية المبكرة آنذاك غلاف جوى منفصل عن سطحها. ومع بدء إنطلاق غازات النيتروجين والأكسجين والهيدروجين وبخار الماء من باطن الأرض ومن سطحها ومع زيادة عزم الدوران المركزى لها الذى تسبب فى زيادة طاقة ما يعلوها من غازات منطلقة من باطنها بدأت تتكون طبقات متعددة (أو سماوات) من هذا الغلاف الجوى تم فتقهم أى فصلهم عن سطح الأرض لتكوين طبقات الغلاف الجوى المتمايزة حاليا والتى تشمل (٦) ست طبقات متعاقبة هى طبقات التروبوسفير والستراتوسفير والميزوسفيرر والثيرموسفير والأيونوسفير والإكسوسفير. وكان هذا الفتق أو الفصل أمراً ضرورياً ولازما لبدء تكوين طبقات عليا أبرد من طبقات الغلاف المحيط مباشرة بسطح الأرض الساخن يتصاعد إليها بخار الماء من البحار والمحيطات ليتكثف ويتكون منه الماء ولذا جاء عقب ذكر هذا الفتق بقية الآية الكريمة (وجعلنا من الماء كل شيء حى) وهى العلاقة السببية التى لم يتعرض لها المفسرون فى ما مضى لعدم معرفة هذه الخطوات المتعاقبة التى بدأت بتكون الأرض ثم تكوين الغلاف الغازى الملاصق لها ثم فصل هذا الغلاف عنها ثم بدء هطول الأمطار والماء الذى جعل الله منه كل شيء حى.

ولا يتعارض هذا التصور مع ما قد يتبادر إلى الذهن من تعارضه مع معنى الآية الكريمة (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) إذ أن الماء الذى خرج من الأرض مع بدايات تكوينها والذى كون البحار والمحيطات كان ماءاً مالحاً بسبب ذوبان أملاح القشرة الأرضية فيه كما أن الماء الذى جعل الله منه كل شيء حى هو الماء العذب الذى نتج عن تبخر هذه المياه المالحة بعد تكوينها وتكثفها فى طبقات الغلاف الجوى التى تم فصلها عن سطح الأرض ليمكن تكوين الأمطار والماء العذب اللازم للحياة.

وتكشف الآية الأولى عن التعارض الواضح بين مفهومها وبين التصور الفلكى لنظرية الإنفجار الكبير الذى لا يوجد أى دليل يؤيدها سوى الأرصاد الفلكية التى تشير إلى توسع الكون. فالآية تكشف عن أن الله قد خلق الكون (السماء) وأنه يقوم بتوسيع (وليس بزيادة حجم) الكون وهى الحقيقة التى تتفق معها جزئياً الأرصاد الفلكية التى تكشف عن أن الكون يتوسع ويتمدد ككل واحد ولكنه لا يزيد فى الحجم سواء على نطاقه الكلى أو فى نطاق أى أجزاءٍ منه. والله أعلم.

إفتراض أن (السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) إشارة إلى نظرية الإنفجار الكبير لا يتفق مع معانى الآيات أو مع فرضيات نظرية الإنفجار الكبير ذاتها .. والآية الأولى تشير إلى (توسيع) الكون وليس (توسُع) الكون وتشير أيضاً إلى (بناء) الكون وهو ما يتفق مع تكوين السديمات (أو الأسدمة) الغازية أولاً ثم تميزها إلى مجرات ومجموعات نجمية منها مجموعتنا الشمسية يتكون بعضها من نجم وكواكب تدور حوله. ولا يستقيم أن تشير الآية الثانية إلى هذا الإنفجار حيث أنه بإفتراض حدوثه لم يكن هناك أرض أو سماء موصولتين ليتم فتقهما مثلما يشير معنى الآية. ونظرية الإنفجار الكبير نظرية لا أساس لها من المنطق أو حقائق الفلك وتقوم على إفتراضات خيالية لم يثبت شيء منها حتى الآن وتقوم فرضياتها الأساسية على منطق يشبه منطق الهندسة العكسية أى أنه مادام الكون يتوسع الآن فلا بد أنه كان أكثر كثافة منذ فترة زمنية كبيرة كما أنه كان مركزاً فى بقعة بالغة الكثافة فى بدايته الأولى حدث بها إنفجار وتناثر وتباعد مكوناتها الجزئية وهكذا .. الخ الخ.

والربط بين نظرية الإنفجار العظيم وبين الآية الكريمة (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) ربط فى غير محله من أى وجه من الوجوه أشدها وضوحاً أنه لم يكن ثمة أرض أو سماوات فى زمن حدوث هذا الإنفجار ليتسبب فى فتقهما كما تفيد الآية الكريمة. كما أن ذكر الماء بعد هذا الحدث مباشرةً لا يتفق مع أى إفتراضات منطقية تؤيدها أية شواهد أو ظواهر فلكية تتعلق به.

والواقع أن معظم (وليس كل) علماء الفلك والفيزياء متفقون على مفهوم هذه النظرية كما أن جميع الأدلة التى يستند إليها مؤيدو هذه النظرية هى أدلة نظرية مبنية على نماذج إحتمالات رياضية فقط وليس أكثر وعلى ظاهرة تمدد الكون التى ذكرت فى الآية الكريمة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. وتكمن المعضلة فى مفهوم سائد بين العلماء يستبعد معارف الدين تماماً من أية إفتراضات أو نظريات علمية. ويبدو الفارق شاسعاً فى هذا الشأن بين العالم المؤمن والعالم الملحد. فالأخير يهدر الوقت والجهد والمال فى ما لا طائل من ورائه ويصل فى النهاية إلى نظريات لا دليل مادى عليها مثل نظرية الإنفجار الكبير لتفسير نشأة الكون رغم عدم منطقيتها ونظرية التطور لتفسير كيفية النشوء والإرتقاء رغم سذاجة إفتراضاتها وهو ما يتسبب فى أن تظل آلاف البحوث النظرية والعملية التى تستنزف المال والجهد والوقت جاريةً تبحث عن أدلة تساندها لن تعثر عليها مهما طال الزمان بها بسبب هذا المفهوم السائد. بينما لا يضيع العالم المؤمن الجهدَ والوقتَ والمال فى البحث غير المُجدى وبلا طائل فى التفكير فى إيجاد تبريرات أو تفسيرات أو فرضيات لفهم ما جعله الله بعضه أمراً غيبياً إختصه بعلمه وبعضه أمراً واضحاً بكلمة (كن) فيكون كل شيء بلا زمن وبلا سبب ومثلما يتضح من الآية الكريمة (والسماء

بنيناها) أى خلقنا مكوناتها وركبناها ونظمنا أجزاءها .. الخ الخ) التى تكشف عن كيفية خلق الكون دونما حاجة إلى إفتراضات نظرية لا أساس لها من الواقع أو من الأرصاد أو من الحقائق.

ومن الأمور المثيرة فى هذه الظاهرة الفلكية الثابتة التى تكشف إتساع الكون بغير زيادة حجمه أنها تتعارض تعارضاً تاماً مع نظرية الإنفجار العظيم لأنها تتضمن إفتراض أن الكون موجود منذ البداية فى إطار وجود يصعب تصور حجمه أو مساحته وأن ما نشهده من إتساع وتمدد فى المسافات بين المجرات والسُدُمْ التى يتكون منها إنما يحدث داخل هذا الإطار الكُلى وليس خارجه. وهذه الظاهرة تتفق مع تفسير الآية الكريمة (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) حيث يمكن تفسيرها من أحد الوجوه بأن توسيع السماء ـ أو الكون ـ المقصود فى الآية الكريمة يعنى توسيع مكوناتها من مجرات وسُدُمْ وزيادة المسافات بينها. والله أعلم.